صـــــــوت أبنـــــــاء مصـــــــــر

www.arabpsynet.com/documents/DocAniceeVoicePeopleEg.pdf

د. أنيســـــة الأميـــــن مرعـــــي
مجلة نفسية – لبنـــــــان
elaminemerhi@yahoo.fr

"أبي،ألا... ترى إنيأحترق"
سيغموند فرويد
تفسير الأحلام

كتب **محمد فرج** ، من القاهرة ، في **"سفير الشباب"** بتاريخ **22 شباط 2011** ص. **10 ما يلي :**

" نحـــــن مصريون، نحن الذين ولدوا بين أوائل السبعينات ومنتصف الثمتنينات.

نحـــــن الذين ذهبنا إلى مدارس لاتشبه المدارس، واعتدينا على مدرسينا وفررنا من الأيام الدراسية التي كانت مملة.

نحـــــن الذين دخلنا جامعات لاتشبه الجامعات ولم نتعلم سوى كيف نعبر تلك السنوات لنتخرج إلى الفراغ.

نحـــــن مدخنو الحشيش، ومشجعو كرة القدم بحرقة التهبت لها حناجرنا وانفلتت أعصابنا كثيرا من أجل النصر في المباراة.

نحـــــن المتحرشون بالفتيات في المواصلات العامة وفي الأماكن المزدحمة وفي الأعياد وفي كل مناسبة تسمح لنا بلمس فتاة مارة.

نحـــــن الذين نصلي أحيانا خلال العام، ونصلي دائما في رمضان، ونبكي بحرقة كي يغفر الله ذنوبنا التي لا نعرفها ونحتفل في العيد بالمخدرات والحشيش.

نحـــــن محبو تامر حسني وهيفاء وهبي ونانسي عجرم وروبي أيضا، نتبع الفيديو كليب بكل حرص وتلهف لنعقد المقارنات بين صدر هذه ومؤخرة تلك.

نحـــــن ننفق الساعات الطويلة أمام شاشات الكمبيوتر، باحثين عن غرف الدردشة الجنسية على شبكة الأنترنت.

نحـــــن الذين نلقي القمامة في الشارع ونتأسف كثيرا من أكوامها التي تتراكم أمامنا بثبات.

نحـــــن الذين بعنا مصاغ أمهاتنا ومدخرات آبائنا القليلة لنعطيها لسمسار ليضعنا في مركب ليلقي بنا على شواطئ أوروبا، لكننا غرقنا في البحر.

نحـــــن الذين ذهبنا إلى الغردقة وشرم الشيخ لنبحث عن سائحة أجنبية يمكنها منحنا جنسية أخرى وبلد آخر.

ولكن كان ثلاثاء**، وجدنا أنفسنا نمشي في الشارع، في كل المدن كنا نمشي، في كل الشوارع، **نرفع أصواتنا التي لم نعرف أنها لنا.** أصوات **تنادي بلدا اكتشفنا أنه وطناً.** وبدأنا نعرف معنى هذه الأحرف الثلاثة: **"وطـــــــــن".

نحـــــن الذين أمسكنا بأيدي الفتيات كي نعبر معا إلى ساحة ميدان الحلم، ولم نتحرش بهن، ولم نشعر إلا بأننا واحد. "

عيّن هذه الشاب وسّمى مرة واحدة **كل ما كان يشكو منه الشباب المصري،** متع موجعة وآنية، قلق إزاء الجنس الآخر، هجرات وغرق في البحر.

أصواتهم فاجأتهم هم قبل أن يصل صداها إلى كآبة الكبار وقنوطهم وهزيمتهم على مدى ما يقارب النصف قرن. وعي برز فجأة كأنه آت من مكان آخر. صوتهم واحد، ذكورا وإناثاً، كلمة واحدة **: لا.**

من أين خرج هذا الصوت ؟

إلى أين هو ذاهب ؟

الأجســـــــاد المحترقـــــــة

بين" ***الغرق في البحر***" و"**جسد محمد بوعزيزي الملتهب**" توجد مسافة ضوئية. الغرق في البحر هو الصمت والموت والغياب، هو الذل والمهانة، هو أن يكون الواحد لاشيئ.. جسد الاحتراق هو على العكس من ذلك كلية، إنه مشهد هائل يحضر معلنا الحضور الكبير لمأساة وجود من دون معنى، وجود اللا أحد. المشهدية العلنية في السلوك هي نداء و رسالة موجهة إلى من يجب أن يرى ويفهم ويتدخل. ولكن، قال زين العابدين بن علي

عن البوعزيزي التونسي " **فليمـــــــــت** "..، الطاغية ميت، لايسمع ولايرى ولايشعر. وصلت الصورة إلى مكان آخر. **الجسد الملتهب صورة اخترقت الأجساد الملتهبة رغبة بالحياة وبالكرامة.** صورة مشهدية. والصورة أكثر وصولا لأنها طفولية. **نحن نلتقط الصور قبل التقاط الكلمات،** تذهب الصورة مباشرة إلى هواماتنا. الأجساد الملتهبة بالرغبة، مسها الحريق فصرخت. وكانت صرخة الولادة. يقول محمد فرج " ***كان ثلاثاء .....كنا نمشي في كل الشوارع ، نرفع أصواتنا التي لا نعرف أنها لنا*** " .

لماذا لا يعرف الطفل صوته ؟

تتم بين الأم وطفلها لغة خاصة، هي نظرات ولمسات وأصوات يتبادلانها. هي كود خاصة بهما. عندما يتم تعلم اللغة يحضر الأب " هذا أبوك " تسميه الأم، إنه رجلها القادر على إشباع رغباتها وإملاء نقصها، إنه الحامل للقضيب (الفالوس) بكل ما يعني ذلك من حضور وقوة ومعنى وقدرة. أنه الثالث الذي له وظيفة جوهرية في قطع حبل السرة بين الأم والطفل. يأخذ الأب بيد ابنه إلى العالم الرحب ويدخله إلى **العالم الرمزي، عالم اللغة، عالم المعنى.** تكمن أهمية دور الأب كونه المنافس الأساسي الذي يطرح أمام الولد\ صبي أو بنت \ صورة يجهد في تمثلها ليأخذ مطرحا في الدنيا، حيث ينسج المتخيل سيناريوهات تشكل دروبا للتحقق الفردي، لتكوين هوية، لتغذية النرجسية الذاتية، ليصير الصبي رجلا يبحث عن امرأة تضاهي أمه، ولتصير البنت أنثى تلتقي برجل يضاهي أباها. إذا لم يمتلك الأب هذه الصورة الصلبة لا تستطيع صورته أن تبني رجالا ونساء.. يبقى الطفل غارقا في البحر. ماذا لو كان الأب مهزوما! ألا تصير الأم مطلقة القدرة! هي التي تخلف وهي التي تعطي الأمان. ألا يبقى الأولاد هنا أطفالا!

من أين يأتي الأب ؟

ما من أب خرج " أبا " من بطن أمرأة. البطن لا يولد سوى أبناء. الأب بناء يتكفل الحقل العام بتكريسه.

ماذا عن الأب المصري اليوم ؟

هنا سوف نستكشف صورة الأب في المتخيل الشعبي كما تقدمه المسلسلات المصرية.

المسلسل مرآة اجتماعية موجودة في كل بيت، تتعاقب مع الليالي، صور للذات وللغير في شبكة من العلاقات والأحداث حيث الداخل والخارج،

البيت والشارع، يتداخلون بشكل توليفي وطبيعي ، ليلة بعد ليلة وحلقة بعد حلقة.

حضـــــرة المتهـــــم أبـــــي

. " حضرة المتهم أبي " مسلسل عرض في رمضان 2006. كتابة محمد جلال. إخراج رباب حسين.

. في هذا المسلسل مادة ملفتة لما آلت إليه الحال في الواقع المصري، من تداع للمؤسسات التي كانت رافعة لمسار التكون الشبابي الحالم بالغد. يقوم التحليل عبر تقديم الدلالات الأساسية لمسار أستاذين. أستاذ اللغة العربية في مدرسة ثانوية وأستاذ جامعي هو بنفس الوقت ، كاتب صحفي ومناضل سابق، كليهما أب لأسرة. إلى جانبهما آباء آخرين. ومصير الأبناء في بيئة هزمت فيها القيم الإنسانية.

الحالـــــــة الأولى

الأستاذ عبد الحميد أحمد دراز، **أستاذ اللغة العربية** في المدرسة القومية النموذجية للغات.

أستاذ نموذجي في التعليم وهذا ما يشهد عليه الجميع. أينما يذهب فهو محط احترام وتقدير. يجد تلامذته أينما كان: الطبيب والمحامي والضابط. كما يحترمه كل من عرفه أو سمع به. أحسن مدرس لغة عربية في القاهرة. إنه أيضا **الوكيل** الذي يهتم بشؤون الطلاب ومشاكلهم. نراه في اجتماع مجلس الأهل حيث تدور النقاشات عاليا إنما لا نعرف ولا نفهم كلمة مما يقال، فقط جملة واحدة تتسلل إلى السمع، على لسانه " ***لازم نكون قدوة لأولادنا*** ". في المدرسة هو أب لمن ليس له أب " لأن الأساتذة هم ورثة الأنبياء، الساهرين على الإرث القيمي والأخلاقي الذي أتى مع الدين ". الله \ ربنا \ اللغة \.

حسبي الله ونعم الوكيل

في البيت نرى أننا أمام أسرة محافظة. زوجة هنية تطبخ لزوجها ما يحب، تساعده في شلح حذائه، في محياها كل الرضى والإبتسامة والفرح. الابن أحمد، سنة جامعية ثانية وكابتن فريق كرة السلة في الجامعة ومؤهل ليكون بطلاً قومياً، الابن محمد، ثانوي، البنت دعاء سنة جامعية رابعة وتعيش معهم ابنة أخت الأستاذ، هنى، التي أتت من الصعيد لتدخل

الجامعة. تسكن العائلة في حي متواضع (العمرانية). نرى ألفة وحب بين الزوج والزوجة وسهر ومراقبة وانتظار لخروج ودخول الأولاد.
في البيت يقرأ الأستاذ القرآن، يلبس الجلابية ويستعمل مفردات وحكم من السيرة ومن القرآن الكريم . تتكرر جملة حسبي الله ونعم الوكيل كلازمة في نهاية كل محادثة. عائلة عربية مسلمة نموذجية يسوسها أب مثالي. مع كل مؤشرات الثقافة العربية الاسلامية: اللغة، الثوب ، القيم ، العلاقات الأسرية . مع دماثة خاصة متحصلة من قدرة الممثل نور الشريف.
الإبن أحمد \ الكابتن \ المؤدب ، تتعلق به الصبية، نجار فؤاد نصار، البنت الأنعم والأغنى في الجامعة. مما يثير غيظ أشرف (ابن وزير سابق أقيل من وظيفته بتهمة الفساد) فيتعامل للإعتداء على أحمد، مع اثنين من شلته، بضربه بالقشاط ورميه في حوض السباحة حيث يصطدم رأسه بالحديد. ويؤخذ إلى المستشفى بين الحياة والموت.

الحق والعدل والقانون والأخلاق

يذهب الأب بقناعة راسخة للدفاع عن حق ابنه في النيابة العامة التي ترى الأمر بعين القانون، والأستاذ يقدم شكوى تتهم من اعتدى على ابنه. ولكن الأمور تذهب في اتجاه المضايقة وتلفيق التهم وسحب اسم صهره الطبيب، زوج ابنته دعاء من البعثة التي سوف تسافر لندن لإنجاز الاختصاص وتلفيق تهمة التحرش بتلميذة يحاول مساعدتها، وذلك عبر والدها، البلطجي الذي يتم شراؤه من قبل عصابة الوزير السابق ورجل الأعمال. ينقل الأستاذ إلى مكتب، هو عبارة عن مخزن قديم يملأه الغبار. ***الأستاذ في المستودع.*** القانون موجود إنما من دون أخلاق. "وكل واحد ياخذ حقو بإيدو".
أمام هذ ه الإزاحات والتلفيقات المدبرة من قبل الوزير ورجل الأعمال فؤاد نصار لا يجد الأستاذ \ الأب حلا سوى التنازل عن حقه في قضية ابنه.
أستاذ اللغة العربية \ الأب الساهر على تربية.
اولاده وأولاد الناس ينهزم بعد رميه في المستودع. يتنازل عن اتهاماته على من اعتدى على ابنه. اننا أمام **ترميز غاية في الأهمية** . الدال هنا هو مفردة ***التنازل .***

التنازل عن الحق

بعد لحظة التنازل نرى الإبن أحمد يريد أخذ حقه بيده ." ***انت خليت بي يابا .....أنا حقي فين*** " يذهب إلى مقهى حيث أولاد الحرام: الحشيشة والبلطجية، وفعلا ينتقم ممن ضربه بمساعدة البلطجية ولكن أيضا بتحوله إلى مروج مخدرات، لأنه فقط بهذه الطريقة ينتقم من الفقر الذي كان سببا سّول لشلة المترفين ضربه وإهانته.

امتلك المال وأصبح واحدا من الشلة، ولكن هذه الشلة تشي به وتتم مداهمة بيت الأستاذ الذي يقول أن شنطة المخدرات هي ملكه وذلك لحماية ابنه. في السجن يرفع الأستاذ صوته بقوة ويقول " ***أنا نائب فاعل مرفوع*** " . حتى اللحظة الأخيرة يبقى الأستاذ عبد الحميد يدافع عن ابنه داخل كل الوحول التي تجعل الأرض تميد تحته. انه يسير وصوت زوجته في المقدمة الموسيقية يردد " ***إنت مش قدهم*** ".

من هـــــم هـــــــؤلاء ؟

المليارديير فؤاد نصار الذي يسكن قصراً يشبه قصور ألف ليلة وليلة مع خدم وحراس، هو على الهاتف مع ابنته من أميركا أو في حديقة منزله وحوله عدد من النساء يتكلم معهن الانكليزية. أو في جلسات العمل حيث يتكلم الانكليزية أيضا. طيارة خاصة تطير إلى فرنسا أو إلى لوس أنجلوس. يرسل ابنته لتتعلم في لندن ليبعدها عن هذا الولد الحقير، ابن المدرس، ساكن العمرانية. هو في المارينا برفقة الوزير المقال (والد أشرف) يتناقشان بكيفية تزويج أشرف ونجار التي لا تحيد عن حبيبها ميدو (الكابتن أحمد) مع كل ما جرى معه. وطبعا يرتبان طرق القضاء ا لمبرم إذا لم يكن النهائي على هذا المدرس .

المال قوة فالوسية، السلطة قوة فالوسية، كذلك العلم و اللغات الأجنبية اليوم .

الأستاذ عبد الحميد دراز ، الأستاذ المثالي الذي يعرف العربية كلغة حياة وسلوك هو أيضا أب مثالي، نراه في مطرحين فقط: المدرسة والبيت. يتفاجأ بكل ما يحصل في الخارج وتعبر امرأته عن ذلك بأن تشهق كلما سمعت أن هنى قد تأكل سندويش في الخارج مثلاً، أو أن ابنتها سوف تسافر إلى لندن مع عريسها. يبقى يكرر نفس الرؤى القيمية، بنفس الجمل ،مع كل ما يحصل في بيته. توحي هذه الدائرة المسورة: اللغة العربية وبنيتها الاجتماعية وأهلها وقيمها، التي قدمت بطريقة نكاد

نعشق صفاءها وطهرها ونقاوتها، كأن الخارج غير موجود إلا للإزعاج والتشويش على هذا الداخل المكتمل.
مرة واحدة يعترف الأستاذ أنه أخطأ عندما تنازل عن حقه.

لم يستطع الأب \ الأستاذ، تعبيد الطريق لأولاده كي يصيروا رجالاً أحرارا فبقوا أطفالا صفعتهم عواصف التحولات المحيطة. لذا أطلق على المسلسل اسم **حضرة المتهم أبي.** ويجب أن ننتبه لمفردة **حضرة** حيث الاتهام يوجه بكل أدب **إلى أب هزمته أنظمة فاسدة**، وثقافة مقفلة على نفسها. الهزيمة ليست له وحده، هي **هزيمة اللغة والحق والقانون والهوية.** ضاع الإبن الذي كانا واعدا بأن يكون بطلا رياضيا قوميا. ورسب الإبن الآخر. يقول علاء الأسواني " *في الغرب، ينظرون غالبا إلى الشعوب العربية على أنهم أطفال صغار وكأنهم لا يفقهون ما عليهم فعله* ".

الحالـــــــة الثانيـــــــة

الأب في الأسرة الثانية هو مناضل سابق، أستاذ جامعي في قسم الصحافة، وصحفي.
تركت الزوجة البيت لأن المناضل يجيبها دائما بلغة الثورة والقيم والأخلاقيات الكونية، سيدة جميلة مطلقة، تفتح بزنس، بوتيك، وتعشق شابا في عمر ابنها. العائلة مؤلفة من الأب والأم وصبي وبنت.
ابن المناضل \ الأستاذ الجامعي، هو واحد من شلة أشرف، ابن المليونير. سيارات وبذخ ومخدرات وتحرش. تقع بين يديه، هنى، إبنة أخت الأستاذ عبد الحميد دراز، الريفية الوافدة إلى القاهرة لتدرس الصحافة، البنت المحافظة والمسكونة بان يهتم بها شاب ما، فكيف إذا كان ابن الأستاذ الذي تحترمه. يقنعها بالزواج العرفي، تصدق حبه. يرى خالد أن أمه تتزوج من شاب في عمره، يصاب بحالة هستيرية ويرى أنه لا يستطيع أن يثق بأية امرأة، يخنق هنى وتموت.
النضال الفكري والسياسي يتحول هنا إلى لغة خشبية تكرارية، مؤسسة الجامعة لم تنتج علماء, صارت مكانا للعبور أو لتنمية أيديولوجيات أو لتكوين زمر وعصب حيث المتع الآنية متاحة وحيث طلب اللذة يترجم ، عند الضرورة، بالزواج العرفي.
أما الصحافة فلهاث وراء الخبر وترجمات ولغة لا يقرؤها الشباب. **سقطت مؤسسة الجامعة ومؤسسة الصحافة ولعبة الركض وراء الأفكار التغييرية في**

المتخيل الشعبي. الأستاذ الجامعي هنا وحيد, تتزوج طليقته من شاب في عمر ابنها الذي يصير قاتلا وتموت البنت التي تصدق الحب والزواج وخالد. الصورة الدرامية التي قدمها محمد فرج عن الشباب المصري، في عهد نظام مبارك، هي نفسها التي قدمها المسلسل.

عـــــــودة المكبـــــــوت

" كان ثلاثاء ..... كنا نمشي في كل الشوارع ، نرفع أصواتنا التي لانعرف أنها لنا "

تفاجأ الجميع من غضبة **شباب الفيسبوك**، حتى الشباب أنفسهم. تحول الشباب في نظر الجميع إلى حالة منبوذة، مرضية.
الأعراض symptôme التي ذكرها محمد فرج " ***نحن الذين .....***" اختصرت الشباب إلى ما يعانونه، حيث التعبير الجزئي يختصر الكائن الحامل لها، وهذا تيار تقليصي تقدمه اليوم العلوم الطبية والعلوم النفسية، في محاولة منها إلى تحويل الكائن المتكلم إلى تعضية جسدية، وبالتالي فإن الحل يتم بالمزيد من الإستهلاك، بما فيها الحبوب المهدئة. فالأعراض اليوم هي موضة، نتعايش معها، أنهم رفقة حميمة تعلن حضور الذهن في الجسد. يتعامل الطب مع العارض فقط، تماما كما يتعامل الناس مع الشباب وكأن الذات المتألمة تبقى غريبة عن ما تعانيه. كأن تاريخ هذا الكائن المتكلم ليس له علاقة بما يعانيه. قام التحليل النفسي بثورة عندما قدم أن **وعينا بما نعانيه هو مصدر شفاؤنا.**
العارض هو إعلان صريح أن شيئا ما في سيرورة انبناء الكائن المتكلم لا يجري كما يجب. العارض مزدوج المعنى، إنه الرغبة أو الشوق لأمر ما ونفيه، أحد أهم الأعراض هو **الخـــــــوف**، إذا لم نقل **الفوبيـــــا**، والفوبيا هي عارض غياب الأب . إن التذكر والتلفظ بالظروف التي أدت إلى ظهور الأعراض، يسمح، بحركة واحدة، بتحرير الهوام الكائن وراء الرغبة، هوام مكيس سجين فخ يقع بين الجلد والكلمة. انهيار حاجز الخوف فتح الباب واسعا ليس فقط أمام التعبير، إنما للخروج إلى الميدان " ميدان التحرير" .
إن **لغة الفايسبوك** كانت وسيلة ناقلة لما وراءها. ابتدأت بجملة **"كلنا خالد سعيد"** ، الضحية التي أعطت رسما واسما للقهر. يختزن الشباب

كل آمال الأهل، يريدون تحقيق رغبة الأم في إعادة الإعتبار لرجلها \ أبيهم، حتى يتحرروا هم من هذا المكوث في الغرف المغلقة في بيوتهم وحيث ظلها لا يفارقهم. **الأب المهزوم أمام القانون وفي الشارع وفي المتخيل** حيث رؤساء الأحزاب فقدوا موقعهم حين بقوا رؤساء فقط، احتكروا المعنى. سقطت لغتهم هم أيضا، لحظة تنا زلوا عن حقهم الذي هو في الحقيقة حق أولادهم. اختزن الشباب القضايا كلها، وهذا هو منطق الكائن، **الحركة التي قاموا بها مثقلة بتواريخ ولحظات لازمت عمرهم.** الحركة مفاجئة ولكن المعنى كامن في الصوت وفي الكلمات، في العودة إلى أخذ الأمكنة التي طرد منها آبائهم، وهل هناك أكثر دلالة من مفردة " **ميدان التحرير** ". اللغة لها صداها في اللاوعي، " **الشعب يريد إسقاط النظام** ". نظام كامل من الطرد والنفي والشطب، كانت نتائجه أجساد تلتهب شوقا للحضور قبل أن تحترق.

إلى أيـــــن يذهب الصوت !.

خرج الأبناء الشباب وقالوا كلمتهم، إنهم رجال زمن بدأ. قال **علاء الأسواني:** " ***وأنت يا أم الدنيا ، يا حبالة، يا ولادة، يا نوارة، لدي لنا في هذه الأيام القادمة دنياك الجديد"*** . هل هناك أم تلد من دون رجل! وهل مصر من دون رجالها تصير دنيا جديدة! الأبناء اليوم أحيوا آبائهم وليس مولديهم، أصبحوا رجالا سوف يفاجئوننا كل يوم بإنجازاتهم.

قال رجل من الميدان أمام الميكرو " **عمري واحد وأربعين عاما، لأول مرة أشعر أني رجل".**

أنيســـــة الأميـــــن مرعـــــي

elaminemerhi@yahoo.fr

بيروت في 8\2 \2011

**** ****

Pr. Y. Rakhawy Web Site
http://www.rakhawy.org/a_site /
http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/IndexRakAr.htm

Arabpsynet
www.arabpsynet.com

Subscribe To APN
http://www.arabpsynet.com/Subs.asp

المجلة العربية للطب النفسي
http://www.arabpsynet.com/Journals/ajp/index-ajp.htm